وَسَـائِل الصيْد

تمهيد:

يقول الله تعالى: ﴿ولقد كرَّمنا بنى آدم وحَملناهم فى البَرّ والبحر ورزقناهم من الطيِّبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾.

ومن تكريم الله تعالى الإنسان وتفضيله إيّاه على كثير من خلقه، أن سخَّر له ما فى السماوات وما فى الأرض من نامٍ وغير نام[1].

وقد أجملتْ ماسخَّره الله تعالى للإنسان من النامى وغير النامى، الآية الكريمة من سورة الجاثية: ﴿وسخَّر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعًا منه إنَّ فى ذلك لآيات لقومٍ يتفكرون﴾.

ثم فصلت هذا الإجمال أكثر من عشرين آية فى كتاب الله من أجمعها لهذه المسخَّرات الآيات الكريمة من سورة النحل: ﴿والأنعام خَلَقها لكم فيها دفء ومنافعُ ومنها تأكلون. ولكم فيها جَمالٌ حين تُريحون وحين تسرحون. وتَحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشِقِّ الأنفس إنَّ ربَّكم لرءُوف رحيم. والخيلَ والبغال والحمير لِتركبوها وزينةً ويَخلُق ما لا تعلمون. وعلى الله قصد السبيل ومنها جائرٌ ولو شاء لهَداكم أجمعين. هو الذى أنزل من السماء ماءً لكم منه شرابٌ ومنه شجرٌ فيه تُسيمون. يُنبت لكم به الزرع والزيتون والنخيلَ والأعنابَ ومِنْ كلِّ

---

(١) آثرنا متابعة الجاحظ فى تقسيمه لكائنات إلى نام وغير نام، على تقسيم غيره إياها إلى حيوانات ونبات وجماد، وليس يخفى عليك إذا تأملت وجه هذا الإيثار، فإن من المتنافس أن يسمى الماء جمادًا.

الثمراتِ إنَّ فى ذلك لآيةً لقوم يتفكرون. وسخَّرَ لكم الليلَ والنهارَ والشمسَ والقمرَ والنجومُ مسخَّراتٌ بأمره إن فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يَعقِلون. وما ذرَأَ لكم فى الأرض مختلِفاً ألوانه إنَّ فى ذلك لآيةً لقومٍ يذكرون. وهو الذى سخَّر البحر لتأكلوا منه لحماً طريًّا وتَستخرجوا منه حليةً تلبَسونها وترى الفلْك مواخِرَ فيه ولتبتغوا من فضلِه ولعلّكم تشكرون﴾.

فأنت ترى أن هذه الآيات من سورة النحل قد فصلت إجمال الآية من سورة الجاثية من حيث انتظمت النامى وغير النامى مما سخر الله لعباده من الكائنات، ولو كان لنا أن نعرف تاريخ النزول لقطعنا بهذا الذى ذكرنا. وإذ كان لا سبيل لنا إلى التوقيت فإن ثمة احتمالاً آخر، أن تكون اية الجاثية قد أجملت التفصيل فيما سواها من الآيات.

والتفصيل بعد الإجمال كالإجمال بعد التفصيل، كلاهما يرد به القرآن الكريم وكلاهما تتحقق به أغراض بلاغية شريفة.

ومهما اختلف أهل النظر فى تعريف الإنسان على أنه حيوان ناطق، أو حيوان متدين، أو حيوان مدنى بالطبع، أو روح علوى سقط إلى الأرض من السماء، أو حيوان صانع للآلات، فإنهم متفقون على أن الحيوانية جزء من طبيعته وأصل فى فطرته، فهو حيوان قبل كل اعتبار ومع كل اعتبار. وإنما يمتاز من سائر الحيوان بأمرين: القدرة على الإدراك، والقدرة على التحكم فى النفس. فعن الإدراك يمضى يوازن ويقابل ويستنتج، وعن التحكم فى النفس، يريد ويتصرف فى حدود مايُريد، مخالفًا غرائزه ومعاندًا شهواته فى كثير من الأحيان.

فالآدميون - بحكم الفطرة التى فطرهم الله عليها - لا يختلفون فى أصل إدراك الأشياء، نفعًا أو ضرًّا، وخيرًا أو شرًّا، ﴿ألم نجعل له عينين ولسانًا وشفتين وهديناه النجدين﴾، ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكرًا وإما كفورًا﴾.

وإنما يختلفون بمقدار تفاوت هذا الإدراك وليس بأصله، لأنه ثابت لكل ولد آدم بمقتضى الآيتين الشريفتين، ثم بمقتضى ما نشاهده فى دنيا الناس، وإذا تفاضلوا، فإنما يتفاضلون بمقدار تحكمهم فى أنفسهم، وكبحهم جماح أهوائهم وشهواتهم وتوجيههم إياها فى حيث وإلى حيث يريدون.

ومن هنا يقرأ القارئ قول الله عز وجل: ﴿وإذ قال ربُّك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يُفسِد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبِّح بحمدِك ونقدِّس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون﴾. فإذا تدبَّر هذا الذى قرأ كان له أن ينسب الملائكة إلى الخطأ وعِلمهم إلى القصور فى وصفهم آدم وذريته بأنهم لايعْدون أن يكونوا مفسدين فى الأرض سفاكين للدماء، فإن بنى آدم أجلّ من ذلك وأعظم، بدليل أن الله تعالى رد على الملائكة زعمهم الذى زعموا، حيث قال جل ثناؤه: ﴿إنى أعلم ما لا تعلمون﴾.

ومما ينبغى التنبه له، أن المراد بالتسخير فى الآيات من كتاب الله عز وجل، إنما هو تذليل الله للإنسان الكائنات وقهرها له، حتى تتصرف تصرفها الدائب فى غير توقف ولا اختيار، فينتفع بها على قدر ما يستخدم من عقله ويبذل من جهده.

وبهذا يظهر معنى خلافته فى الأرض، إذ أنه - وليس له جسم الفيل على ضخامته، ولا قوة الأسد على جراءته ولا حيلة النمر على دهائه - قد أخضع لسيادته الفيل حتى جعله من جنوده فى المعارك، والأسد والذئب والنمر والفهد حتى اتخذ منها وسيلة لهو، أو آلة صيد، فإذا جميع ما فى كون الله العظيم مسود له، خادم لرغائبه. وإذا كل مافرقه الله فى أصناف الحيوان بالآلة الكاسبة، قد جمعه تعالى لأبناء آدم بالقوة العاقلة.

وكما جعل الله ولد آدم بعضهم لبعض فتنة، فسلط بعضهم على بعض يقتل القوى الضعيف بقوته، وربما قتل الضعيف القوى بحيلته، كذلك سلط الحيوان

بعضه على بعض، وأغرى أجناس الطير بعضها ببعض، يقتل القوى الضعيف بقوته وربما قتل الضعيف القوى بحيلته.

وقبل أن نتعرض بالحديث لوسائل الصيد من الضاريات والجارحات، نلم بحديث عن وسائل غيرها عرفها الإنسان فى هذا المجال.

الفرس[1]:

والفرس أكرم وسائل الصيد، من حيث كان وسيلة استخدمها العربى فى مجال الصيد وفى مجال الحرب، وانتفع به فى المجالين على سواء، وقد خلّدوا ذلك فى أشعارهم وأسمارهم.

وكلمة فرس مشتقة من الأفراس، لأنها، كأنها تفترس الأرض بسرعة سيرها، كما أن كلمة خيل مشتقة من الخيَلاء، لأن راكب الخيل كثيرًا مايجد ذلك فى نفسه.

وراكب الفرس يدعى فارسًا، لا يوصف بهذا الوصف غيره، والفرس الكريم أشبه بالإنسان، من حيث ما فطره الله عليه من الكرم وشرف النفس ورعاية حقّ الصحبة وسدّة الوفاء لصاحبه، فإنه إذا سقط عن ظهره وقف ينتظره حتى يركبه، ثم هو لا يمكن غير صاحبه من ركوبه، ولا يبول ولا يروث مادام راكبه مستويًا على ظهره، وربما حزن الفرس لموت صاحبه حزنًا أفضى به إلى الموت.

وأهل العلم يجعلون الخيول أقسامًا ثلاثة:

أولها: الخيل العراب، وهى أفضلها وأعلاها قيمة، وإنما تطلب للسبط والطراد.

---

(١) الفرس للذكر والأنثى (القاموس).

وثانيها: العجام، وهى البراذين أو الهماليج أوالأكاديش، وإنما تطلب لشدة صبرها على السير.

وثالثها: نتاج ما بين العراب والعجام.فإن كان الأب عربيًّا والأم عجمية، فالولد هجين، وإن كان الأب عجميًّا والأم عربية، فالولد مقرف.

والقياس ماض على هذا النهج فى الحكم على بنى الإنسان، فإذا كان الأب عربيًّا والأم عربية فهو فى لغة العرب صريح، وإن كان الأب عربيًّا والأم غير عربية فالولد هجين، وإن كانت الأم عربية والأب غير عربى فالولد مقرف.

وكرام الخيل المشهورة عند العرب كثير، فى ذروتها فرس يدعى «زاد الراكب» أهداه سيدنا سليمان عليه السلام إلى قوم من الأزد، ونبههم إلى أن هذا الفرس أداة صيد تحصل لهم طعامهم، ووسيلة سفر تبلغ بهم غايتهم، فذلك حيث قال: إذا نزلتم منزلاً، فاحملوا عليه غلامًا واحتطبوا، فإنكم لا توقدون ناركم حتى يأتيكم بطعام. فسار به القوم، فكانوا لا ينزلون منزلاً إلا ركبه أحدهم للصيد والقنص فلا يفلت شىء تقع عليه عينه، وحشًا كان أو ظبيًّا أو بقرة أو حمارًا، حتى قدموا بلادهم فقالوا: ما لفرسنا هذا اسم إلا «زاد الراكب» فيما يزعمون.

وفى فحول العراب من نتاج هذا الفرس يقول امرؤ القيس:

إذا ما جرى شأوين وابتلَّ عطفه ... تقول هزيز الريح مرَّت بأثأب[1]

إذا ما ركبنا قال ولدانُ أهلنا ... تعالوا إلى أن يأتى الصيد نحطب[2]

---

(١) لسأو: انطلق السريع و بتلان لعطف سيلان العرق على جانبيه. وهزيز لريح صوتها. والأثاب سجر. يقول الشاعر إن هذ الفرس إذا جرى بلله العرق لأنه سريع لجرى حتى كأنه صوت الريح خلال لأشجار.

(٢) حطب يحطب: جمع الحطب للشواء والطبخ يقول لشاعر إنا إذا ركبنا هذا الفرس ابتغاء الصيد فإن الصبيان من أهلنا ينادون إلى جمع الحطب لشواء الصيد ثقة منهم بأن ركبه لابد أن يعود بالصيد.

فيومًا على سرب نقىّ جلوده ويومًا على بَيدانة أم تولب[1]

هذا.. وهذا الكتاب لم نكتبه لاستيعاب مثل هذه المعانى، فإن العرب قد وصفوا الخيل وكتبوا فى ذلك كتبًا رائعًا معجبة، فمن أراد من ذلك شيئًا فعليه بتلك الأمهات.

غير أننا كما ذكرنا عن القدماء شيئاً، نروى فى صفة فرس أبياتًا لأبى الطيّب المتنبى - رحمه الله - يقول فيها:

ويوم كلَيْل العاشقين كمنته أُراقب فيه الشمس أيان تغرُب
وعينى على أُذنى أغرّ كأنه من الليل باقٍ بين عينيه كوكبٌ
له فضلة عن جسمه فى إهابه تجىءُ على صدر رحيبٍ وتذهب
شققتُ به الظلماء أدنى عنانهُ فيَطغى وأُرخيه مرارًا فيلعبُ
وأصرعُ أىَّ الوحش قفيته به وأُنزلُ عنه مثله حين أُركبُ

يصف الشاعر نفسه بأنه - حشية أعدائه - يكمن نهارًا حتى تغيبَ الشمس ويسير ليلًا، فنهاره طويل كليل العاشقين، فإذا جاء الليل وركب فرسه الأسود ذا الغرة البيضاء فى وجهه، لم يرفع عينيه عن أُذنيه، ابتغاء أن يعرف ما فى طريقه عن شخوص وأعيان، فإنَّ الفرس إذا أبصر شيئًا من ذلك نصب أُذنيه نحوه فيعلم الفارس أن ثمة شيئًا يُتّقى؛ وقد سَمِعنا من فرسان قومنا فى صعيد مصر أن راكب الفرس إذا وضع بندقيته بين أُذنيها إذا نصبتهما، ثم أطلق رصاصته فى هذا الاتجاه فإنها لابد أن تصيب.

---

(١) السرب: القطيع من بقر الوحش وبقاء الجلود: بياضها. والبيدانة: الحمارة الوحشية المكتنزة الجسم والتولب: الجحش الذى هو ولدها. يقول الشاعر: إنه يصطاد بهذا الفرس فى بعض الأيام بقر الوحش، وفى بعضها الآخر حمرًا وحشية سمينة.

ومضى أبو الطيب يصف فرسه باتساع الجلد، وأن له فضلة عن جسمه فى إهاب تجيء وتذهب على صدره الرحيب، فاتساع الجلد تتيسَّر به الفرس شِدة العدْو. وقد مضى الشاعر يذكر أنه راح يشقُّ الظلماء بفرسه هذا فحينًا يجذب عنانهُ إليه فيطغى ويشب مرحًا ونشاطًا، وحينًا يرخيه له فيلعب ما شاء له اللعب، وأخيرًا وصفه بأنه إذا اتبع به وحشًا، أى وحْش، لحِقه فصرعه دون أن ينال فرسه تعبٌ، فهو حين ينزل عنه، مثله حين يمتطيه.

ناقلة الصيد:

ربما بدا غريبًا أن يكون البعير وسيلة صيد، فإن القوم لم يألفوه إلاّ حامل أثقال، وإلاّ ذا قدرة بالغة على مصابرة الظمأ ومطاولة مشقّات المسير. فأما أنه يجارى الوحشيّات حتى يتمكن راكبه من صَيدها فذلك ما لم يألفه القوم ولم يتعارفوه.

وإنما الذى عرفوه وألفوه وخلدوه فى أسمارهم وأشعارهم، أن البعير ذريعة إلى مخاتلة الصيد ومخادعته فيمشى الصائد إلى جنبه مستترًا به، حتى إذا أمكنته الفرصة رمى الوحش فأصماه، فذلك قول حسان من قصيدة يمدح بها المهاجرين والأنصار وهو منهم:

إذا نصبنا لقوم لا ندبَّ لهم كما تدبُّ إلى الوحشية الذرع

وكذلك قول الآخر:

وللمنية أسباب تقرِّبها كما تقرَّب للوحشية الذرع

فالذرع هى الناقة التى يتذرع بها الصائد إلى الصيد.

الجرى وسيلة صيد:

ومن وسائل الصيد جرى الفتى العربى وشدة حُضْرِه[١]، حتى إن الخيل لا تتعلق به، فهو يعادى الظباء فيصيد منها ما يصيد آخذًا بقرونها.

وصعاليك العرب العدّاءون فى هذا الباب، جياد أصيلة لا يشقّ لها غبار.. حكى أبو عبيدة عن أحد هؤلاء الصعاليك وهو السليك السعدى فذكر: أن فارسين على جوادين تبعا هذا الصعلوك ليأخذاه قبل أن ينذر قومه بمغيريه عليهم ولكنه مضى يشتد فى حُضره فلم يدركاه، حتى أتى قومه فأنذرهم فكذبوه لبعد الغاية فأنشأ يقول:

يكذبنى العمران عمرو بن جندب ... وعمرو بن سعد والمكذَّب أكذب
ثكلتهما إن لم أكن قد رأيتها ... كراديس يهديها إلى الحرب موكب

يقولُ داعيًا على نفسه بثكل أبناء عمومته، إنه رأى الخيل جماعات فى موكب يسوقها أعداؤهم إلى حربهم، ثم أتى قومه ما كان قد أنذرهم به فندموا ولات ساعة مندم. فهذا وأمثاله من فتيان العرب لا يستبعد المرء أن يتمكنوا من صيد الظباء بالأيدى دون حاجة إلى فرس، ومطرد[٢].

ومن الصور العجيبة فى هذا الباب أيضًا، ما روى محمد بن يزيد المبرد صاحب الكامل عن الأصمعى أنه قال: نظر رجل إلى ظبية ترد الماء فأعجبته وكان إلى جانبه فتى أعرابى يلاحظه فقال للرجل: أرى أنها أعجبتك، أفتحب أن تكون لك؟ قال الرجل: نعم. قال: أعطنى أربعة دراهم حتى أردُّها إليك،

---

(١) الحضر: شدة العَدْو.

(٢) المطرد: رمح قصير يطعن به الوحش رميًا من بعيد.

فأعطاه فخرج يحص[١] فى أثرها، فجدَّت فجدَّ، وشدَّت فشدَّ حتى أخذ بقرنيها فردَّها عليه وهو يقول:

وهى على البعد تلوّى خدها ... تُزيغ شدًى وأزيغ شدَّها[٢]
كيف ترى عدْوى غُلامٌ ردَّها ... وكلما جدَّت ترانى عندها

فهكذا كانت البادية تمنح الذين يعيشون فى أحضانها من القوة والفتوة شبابًا وكهولاً وشيوخًا ما يجعلهم يستمتعون من الحياة بأعز مافيها من صحة وقوة وهناءة على الرغم من شظف العيش وخشونة الحياة التى تلمُّ فى كثير من الأحيان بالكثيرين منهم.

والرمضاء أيضًا:

الرَّمضاء: الحجارة التى اشتدَّ عليها وقعُ الشمس فحميت، ومن ذلك قالوا لشهر الصوم رمضان لأنهم حينما وضعوا أسماء الشهور صادف ذلك الشهر شدَّة الحر، كما قالوا جُمادى الأولى، وجمادى الآخرة لأنهم حين وضعوا هذا الاسم صادف ذلك تجمُّد الماء.

وقد كانت الرَّمضاء من وسائل الصيد عندهم، فكان أحدهم يخرج ليصطاد الظباء فيسوقها فى الرَّمضاء حتى تتفسَّخ أظلافها، فيأخذها فى غير عناء فذلك قولهم: «خرج فلان يترمَّض الظباء».

والنار أيضًا:

ومن هذه الوسائل أيضًا النار توقد للظباء فتعشى إذا أدامت النظر إليها،

---

(١) يحص: يجد السير (القاموس).

(٢) الزيغ: الميل (القاموس).

فيكون صيدها أيسر مايكون. وقد أذكر أننى رأيت هذا المشهد فى غابة بـ«هوبال» فى الهند عام ١٩٦٥ ميلادية حين زرنا الهند للمشاركة فى الاحتفال بتنصيب سيدنا محمد برهان الدين سلطانًا على طائفة البهرة، وذلك أن سائق السيارة وسط تلك الغابة كان يسلط مصابيحها فتقف الظباء محدِّقة فيها ذاهلة عما حولها، فلا تلبث أن تصرعها رامية الرصاص عن يد حاذق فى الرماية بصير.

وربما أوقدوا النيران على الأسد يهوِّلون بها عليها حين يخافونها، فإذا عاين الأسد النار حدَّق فيها وتأمّلها فتشغله عن السابلة.

ومما يُروى فى هذا المقام ما ذكره الجاحظ من قوله: مرَّ أبو ثعلبة الأعرج على وادى السباع فعرض له سبعٌ، فقال له المكارى: لو أمرت غلمانك فأوقدوا نارًا وضربوا على الطسوت. لكان فى ذلك نجاء. فلما فعلوا أحجم الأسد عنهم. فمن أجل ذلك أحب أبو ثعلبة النار والصوت ولو كان شديدًا مزعجًا، وكان من قبل شديد البغض للنار والصوت حتى روى الرواة عنه فى هذا الباب شعرًا يقول فيه:

فأحببتها حبًّا هويتُ لقاءها ولو فى صميم النار نار جهنمِ
وصرتُ ألذُّ الصوت لو كان صاعقًا وأطرَبُ من صوت الحمار المرقَّمِ

هذا، ومما لا ينكر أن الإنسان ينتفع بالشىء فيؤثره ذاهلًا عما اشتمل عليه من مضرَّة وأذى، فهذا أبو ثعلبة لما أنجته النار والصوت الشديد من أذى الأسد أحبهما على أنهما لا يُحبَّان، وعلى أنه كان يكرههُما من قبل.

وقد ذكر الجاحظ أن أعرابيًّا اشتد عليه البرد فأصاب نارًا فدنا منها ليصطلى، فلما أحسَّ الدفء قال: «اللهم لا تحرمنيها فى الدنيا ولا فى الآخرة».